٣٠٩٥٦

المورد

مجلة تراثية فصلية

تصدرها وزارة الثقافة والاعلام ـ دار الشؤون الثقافية العامة ـ بغداد ـ الجمهورية العراقية
رئيس مجلس الادارة الدكتور محسن خليل الموسوي

دار الحرية

المجلد التاسع عشر
ربيع ١٩٩٠
العدد الأول

رئيس التحرير طراد الكبيسي

سكرتيرة التحرير هدى شوكت بهنام

www.dorat-ghawas.com

المحتوى

البحوث والدراسات

١ ـ الشعر الجاهلي في ضوء نظرية باري لورد ..... د. عادل سليمان ٥ ـ ٢٠

٢ ـ قراءة جديدة لـ (عيار الشعر) لابن طباطبا ..... طراد الكبيسي ٢١ ـ ٢٧

٣ ـ الاصول الاكدية لعدد من المفردات والمصطلحات المندائية ..... د. صبيح مذلول ٢٨ ـ ٣٥

٤ ـ الغزالي من الاكاديمية الانسايكلوبيدية ..... مدني صالح ٣٦ ـ ٤١

٥ ـ الخط والريازة في العمارة العربية الاسلامية ..... محمود حمدي ٤٢ ـ ٤٧

٦ ـ جهود الخلافة للتحرر من النفوذ السلجوقي ..... د. نافع توفيق العبود ٤٨ ـ ٥٥

٧ ـ كتاب الفخري في الاداب السلطانية لابن الطقطقي ..... د. ناجي التكريتي ٥٦ ـ ٦٩

٨ ـ الجانب العلمي في كتاب الحيوان للجاحظ ..... د. جليل ابو الحب ٧٠ ـ ٧٦

٩ ـ المنسوجات والسجاجيد العربية الاسلامية ..... د. صلاح حسين العبيدي ٧٧ ـ ٨٤

١٠ ـ الشعراء السفراء في عصر ما قبل الاسلام ..... احمد اسماعيل النعيمي ٨٥ ـ ٩٩

النصوص المحققة:

١١ ـ اعلام النساء في الاندلس من كتاب التكملة لابن الابار ..... د. منجد مصطفى بهجت ١٠٠ ـ ١٢٤

١٢ ـ مواد البيان لعلي بن خلف الكاتب ـ القسم السابع والاخير ..... د. حاتم صالح الضامن ١٢٥ ـ ١٥٥

١٣ ـ رسالة ابن قتيبة في الخط والقلم ..... هلال ناجي ١٥٦ ـ ١٧٠

١٤ ـ يحيى بن ماسويه في الجنين وكونه في الرحم ..... محمود الحاج قاسم ١٧١ ـ ١٧٣

١٥ ـ أنشاد النابغة امام النبي (ﷺ) ..... د. مخيمر صالح ١٧٨ ـ ١٨٣

١٦ ـ الكتاب ـ الكتاب سيبويه ـ مقدمة الكتاب ..... د. محمد كاظم البكاء ١٨٤ ـ ٢٠٦

الفهارس والبيليوغرافيات

١٧ ـ الشعراء التعليميون والمنظومات التعليمية ..... د. رزوق فرج رزوق ٢٠٧ ـ ٢٢٦

١٨ ـ مصادر الصغاني وموارده لمؤلفاته اللغوية ..... د. احمد خان ٢٢٧ ـ ٢٤٣

ندوات

١٩ ـ عبد الحق فاضل ـ الباحث اللغوي ..... د. محمد الطوكي ٢٤٤ ـ ٢٤٩

رأي

٢٠ ـ اللام المفخمة فونيماً ..... سعيد الغانمي ٢٥٠ ـ ٢٥٢

عرض ونقد

٢١ ـ كتاب الدلائل للحسن بن البهلول ..... د. كمال السامرائي ٢٥٣ ـ ٢٥٥

٢٢ ـ قراءة في كتاب ـ فصول التماثيل في تباشير السرور ..... د. يونس أحمد السامرائي ٢٥٦ ـ ٢٦٨

٢٣ ـ ملاحظات على ما أنفرد به القراء ..... د. علي حسين البواب ٢٦٩ ـ ٢٧١

٢٤ ـ تصحيح كتاب التعريف لابي عمرو الداني ..... د. حسام النعيمي ٢٧٢ ـ ٢٨٠

مناقشات وإستدراكات

٢٥ ـ تعقيب على مفهوم التراث العلمي العربي ..... طاهر التميمي ٢٨١ ـ ٢٨٦

٢٦ ـ إستدراكات على (بيليوغرافيا عن الرحلات الى العراق) ..... سلمان هادي طعمة ٢٨٧

٢٧ ـ اخبار التراث العربي ..... اسامة ناصر النقشبندي ٢٨٨ ـ ٢٩٢

٢٨ ـ ندوات حول التراث ..... هدى شوكة بهنام ٢٩٣ ـ ٢٩٧

٢٩ ـ رسائل جامعية ٢٩٨

www.dorat-ghawas.com

عبد الحق فاضل، الباحث اللغوي

دراسة

د. محمد الطوكي
كلية الآداب بمراكش

يشغل متن البحث اللغوي، الذي صدر حتى الآن للاستاذ عبدالحق فاضل - بحسب علمي - أربعة مصنفات؛ (مغامرات لغوية طبعة دار العلم للملايين ببيروت في قرابة ٤٠٠ صفحة، وتاريخهم من لغتهم من منشورات وزارة الإعلام العراقية في ٢٠٠ صفحة ونيف، والعربية أم الألمانية، مطبعة الدار البيضاء في حوالي ١٥٠ صفحة، وأخطاء لغوية من مطبوعات وزارة الثقافة والإعلام العراقية. ولعل هذه الأعمال الجادة: هي التي أسست مجد عبدالحق فاضل اللغوي، ان لم أقل مجده الأدبي.

نعم إن تلك الاعمال تحتاج الى رؤيا لغوية واحدة، والذي يَعنيني في هذه المداخلة، هو الكتاب الأول - مغامرات لغوية -.

فمن حيث العنوان تتبدّى لنا أناقة الصياغة، حيث يعجب قاريْ الكتاب بعلاقة الوئام والانسجام بين الفحوى والشعار. وقد عبَّر الدكتور أنيس منصور عن حسن انتقاء العنوان بقوله: «قد كان موفقاً في اختيار كلمة «مغامرات» لأنها بالفعل كذلك»[1]. وبداية الرحلة كما يقال حيرة يعقبها عزم ومغامرة،

• أقامت كلية الآداب والعلوم الأنسانية في جامعة القاضي عياض بمراكش - المغرب - ندوة تكريمية للأستاذ عبدالحق فاضل للفترة من ٢ - ١٩٨٩/١٠/٣ تحدّث فيها عدد من الباحثين المغاربة والعراقيين عن حياة وجهود الكاتب العراقي عبدالحق فاضل في مجال كتابة القصة والبحث اللغوي والترجمة والبحث المقارن.

منهم الأساتذة: محمد الطوكي، أحمد بلاوي، حسن جلاب، محمد المتوني، أحمد الخلاصة، أحمد الشرقاوي، إقبال، أحمد متفكر من (المغرب) وعلاءالدين غروفة، علي القاسمي، عدنان الأمين، صفاء خلوصي من (العراق) وروكس بن زائد العزيزي من (الأردن) وقد تناولت البحوث والدراسات: (عبدالحق فاضل والجهود اللغوية) (عبدالحق فاضل قاصاً وروائياً) (منهجيّة عبدالحق فاضل في الترجمة) فضلاً عن (الصلات الثقافية بين بغداد العباسيّة والغرب الاسلامي) وعن عبدالحق فاضل سفير الثقافة المشرقية في المغرب.

والحق أن هذه الندوة المتميزة الفريدة من نوعها تُعَدّ أولاً وقبل كل شيْ إلتفاتة كريمة ورائعة من أخواننا المغاربة - والمراكشيين بوجه الخصوص - وهي ليست غريبة منهم - للروائي والباحث اللغوي والمترجم المتميز عبدالحق فاضل: (العراقيّ المقيم في مراكش).

وإكراماً للأستاذ الفاضل عبدالحق فاضل. ولإخواننا المبادرين دائماً بكرم وسخاء وخُلُق عال.. في المغرب عامة، وفي مراكش خاصة. تنشر «المورد» بحث الأستاذ محمد الطوكي الذي ألقي في الندوة المشار إليها: (عبدالحق فاضل، الباحث اللغوي) تقديراً وتكريماً لامتنا وتفضّلاً.

«المورد»

www.dorat-ghawas.com

واقتحام طرق بكر لم توطئها الأقدام ولا نورت مسالكها الصوى والمعالم «أود أن اعرض هنا رأيا لايقطع بصحته نص قديم ولاحديث، وانما هو «نظرية» خطرت لي منذ أعوام، وما زلت أتحدث بها كلما دعت مناسبة. فلم أجد حتى الآن عند أحد ما ينقضها ولا ما يبرمها»[1] والقضية المحورية المهيمنة في الكتاب، والتي استأثرت باهتمام المؤلف، هي رد الاعتبار لعلم أهل اللغات L'origine de La langue، الذي طردته الدراسات اللسانية من حظيرتها، بدعوى انبنائه مقولات هي أدخل في باب الميتافزيقا منها في باب الدراسة الوصفية الإستقرائية. وقد أثبت الباحث، نجاعة هذا العلم ومصداقيته[2] في مجال السامیات، وعلى رأسها العربية التي هي أقرب إلى الأم التي تولدت منها بقية الفروع، آرامية، عبرانية..

وقد تخلل ذلك إلغام مجموعة من المسلمات[3] اللغوية بمتوالية من الأسئلة الذكية، بالإضافة إلى دفع آراء استشراقية توهم بالصحة والموضوعية.[4].

كما وظف الباحث متاعاً علمياً طيباً، في خدمة اللغة العربية من جهة، وخدمة هذه الأمة التي تتحسس طريقها نحو غد أفضل. وكل علم لايخدم مثل هذه القضايا النبيلة، فانه كما يقول ابن فارس «لاينتج إلا ما أعوذ بالله منه». والعياذ بالله من علم لاينفع.

اعتمد الباحث في مقاربة هذا الإشكال، على مجموعة من الأدوات الإجرائية تتصدرها ثنائية التأثيل والترسيس.

وكلمة تأثيل[5] من الاصطلاحات الوصفية، التي تفرد بها عبدالحق فاضل، ويستعملها مقابلة للكلمة الغربية Etymologie. وهذا العلم من مباحث «فقه اللغة» والبعض يسميه علم التأصيل، ويُعنى بارجاع الكلمات ألى أصولها؛ اي احدى اللغات القديمة التي كانت تجمع فيما بينها نرة النسب ووحدة الأصرة. وبعبارة أدق «هو العلم الذي يهتم بأئل الكلمات، ويعنى بوضع عقد ازدياد لكل كلمة على حدة، اعتمادا على مستندات مكتوبة ترجع إلى الماضي السحيق»[6].

ربما أن هذه الأداة لاتكفي وحدها لتحقيق الكفاية الوصفية للوحدات اللغوية، ارتأى الباحث ان يلحقها باداة إجرائية ثانية - من إبداعه واجتهاده - وهي :-

الترسيس: ويقترح لترجمتها Raoixation. والرس في اللغة؛ هو ابتداء الشيْ، وهو هنا، الصورة الأولى للكلمات قبل ان يناوشها التغيير ويعتورها التبدل، فاذا كان «التأثيل رد الكلمة إلى أمها المباشرة أو إلى جدتها المباشرة أو القريبة، فإن الترسيس[7]: هو إعادة اللفظة إلى جدتها الأولى - حواء - في صورتها التي نطق بها أول إنسان، مع تعقب المراحل التطورية التي قطعتها تلك اللفظة، حتى وصلت إلى الصورة التي نعرفها بها في إحدى اللغات»[8].

والتأثيل بهذا المعنى، ليس هو المعجم، وهو من العلوم التي صارت إلينا فيما انتقل من الثقافة الغربية، نعم للعرب فيه تأملات، لكنها لاترقى إلى مستوى البناء العلمي المتراص. وذلك لأن الحاجة لم تكن ماسة إلى تأصيله، اذ الكلمات لدخيلة في العربية قليلة تبلغ ٣٪ من المجموع المادة اللغوية العربية حسب احصاد رفائيل نخلة اليسوعي، ولعل ماعاق تطوير هذه التأملات ارتباطها بالمعيارية، فقد صوب اللغويون وخطأوا، ولربما احتالوا للاخطاء فاستصوبوها، وعمدوا إلى الصواب فقدحوا فيه، ناهيك عن المناظرات التي اتجهت صوب التنكيت والتبكيت، وتقليب الكلمات تقليبا يداعب الشكل ولاينفذ إلى الجوهر.

فهذا الجاحظ يروي على سبيل الملحة، أنه سمع غلاما أعجمياً يقول «سندْ نعال» يريد نعالاً سندية، وهو تركيب لاحن إذا ما قورن بجمهرة الجمل العربية لما فيه من تقديم الصفة على الموصوف. وعبدالحق فاضل يذهب مذهبا آخر وينظر إلى العبارة بمنظار آخر. فالترجمة الأمينة لكلمة الغلام هي «نِعالُ السند، لاكما فسرها الجاحظ نعال سندية، فالعبارة من باب التراكيب الإضافية لا الوصفية، وقد قدم فيها المضاف إليه على المضاف، وهذا من إمارات تأثير السنسكريتية، ولم تقبلها السليقة العربية لما فيها من لبس وقلب للحقائق، ومن هنا جاءت درجة غرابتها ولانحويتها، إذا ما قورنت بتقديم الصفة على الموصوف؛ الذي لنا منهُ أمثلة؛ طويل النجاد. رفيع العماد، لذيذ الطعم، ميمون الطالع، بعيد النظر.

ومن غرائب التفاعل اللغوي، أن العربية عندما احتكت بالفارسية أثناء الفتح وبعده، فرضت على الفارسية تطبيق

www.dorat-ghawas.com

القاعدة العربية؛ تاخير الصفة على الموصوف والربط بينهما بوثاق الإضافة. وأصبح من نتيجة ذلك أن صار الفرس يقولون اليوم؛ تَصِرْابيص، كتابِ ادبي، مدرسية ابتدائي. وهذه هي القاعدة المطردة اليوم، اما القاعدة الفارسية القديمة وهي تسكين الصفة اذا تقدمت على موصوفها، فقد أصبحت من باب الشاذ الذي يحفظ ولايقاس عليه. من مثل جُنْ رُشْ مَهْرْ. بمعنى ركـ = كبير. ومهر = محبة.

بمثل هذه المناقشة التأثيلية الهادفة، يحاور عبدالحق فاضل القدامى ويخرج مثل هذه العبارات من مقام التنكيت إلى القول بالبدعة اللغوية التي لم يكتب لها الذيوع بسبب مجافاة السليقة لها، ويردها إلى أصولها السنسكريتية ويتابع المناقشة بأستثارة قضايا التفاعل والتداخل بين اللغات في المجال التركيبي.

إن المنهج التأثيلي ينطلق أساسا، من تأمل الظاهرة اللغوية، ولاشيْ غيرها، ولا يتعلق بظن أو وهم، مالم يتعزز الحدس ببراهين قاطعة تثلج الصدر يردد يقينها. وعماد هذا المنهج المنطق الاستقرائي والاختبار يقول:

«اننا نوثق المنطق والاستقراء على كل كتاب».

وأدوات هذا المنهج تشغل في صعيد لغوي رحب يشمل اللغات القديمة، السامية، الأرية، واللغات المعاصرة، اذ الحديث عن الاصطلاح العلمي يعتمد على معرفة طيبة بلغات الحضارة الجديدة كالانجليزية والألمانية . . . الخ. هذا بالاضافة الى التضلع في علوم لغوية كالإصاته اذ الكلمات موضوع التشريع هي عبارة عن صوت او مجموعة اصوات، والدلالة لأنها ـ الكلمات ـ حاملة لمعنى قد يكون مجردا او ملموسا. وعلم بالرسم وفك رموز النقوش. هذا إلى جانب معرفة تاريخ الشعوب وتقاليدهم، وعاداتهم اللغوية.

ومن النماذج التطبيقية لهذا الزخم من المعارف بحث المؤلف المتعلق باللغات السامية الثلاث؛ عربي، أرمي، عبري. الذي ينتهي فيه إلى ان الكلمتين أرمي، عبري، متولدتان من أثل كلمة عربي. حيث ابدلت في المرة الأولى العين ألفاً من كلمة عَرَبي فقيل أربي، ثم اعترى نفس الكلمة إبدال ثانٍ، صارت الباء بموجبه ميماً، فاصبحنا أمام أرمي. ولقائل ان يقول «إن القاعدة الصرفية تقرران العين تبدل من الهمزة كثيراً ولم يحدث العكس»[10].

وهنا يناقش عبدالحق فاضل هذه القاعدة الصارمة ويعقب على آراء النحاة القدامى «صحيح أن العرب قد أكثرت من إبدال الهمزة عينا. . غير أننا لانملك دليلا على أن جميع العرب في جميع العصور، لم يحدث مطلقا أن أبدلوا العين همزة، ولدينا في العربية كلمات غير قليلة، انطقها العرب بالهمزة وبالعين[11] مثلا يُـأبه ويعبأ، استأذى واستعرى، موت زؤام وزعاق»[12].

إننا نتعلم من كتب الأقدمين، لكن ليس علينا أن نقدسها وأن نعبدها، فلنا ان نحاورها وأن نستشكل عليها كما يرى عبدالحق فاضل.

من مسلمات النظرية التأثيلية الترسيسية، مقولة؛ حتمية التطور اللغوي.

فمادامت اللغة ظاهرة اجتماعية مرتبطة بالإنسان الذي يعيش داخل مجموعة لغوية، فانها ستخضع ـ ولاريب ـ لنفس القوانين التي تسري على سائر الكائنات الحية، من نشأة وشباب واكتهال وشيخوخة وفناء. فالألفاظ المرنة المتكيفة، تعمر طويلا، اذ تلبس لكل حالة لبوسها وتستبدل جلدها وتتبدى في أزياء متباينة أو مباني مختلفة، ويستتبع ذلك تنوع فحواها بزيادة نونات معنوية، أو نقص من بعض سماتها Les Asimes القديمة، أو خلخلة تامة للمعنى القديم وشحن بدلالات جديدة، ونظرة في معاجم الأمم المتمدنة التي تراجع معاجمها كل بضعة أعوام، توقفنا على ما يولد من الفاظ بإزاء المعاني المستجدة، أو توسيع جلد بعض الألفاظ لتحتضن بعض المعاني المستحدثة. كل ذلك يجري غير عابئ بجهد من يقف في وجه هذا التيار ويجأر بملء حنجرته قل ولاتقل.

فالتطور اللغوي أمر واقع تحكمه قوانين دقيقة، ودور الباحث أو الفقيه اللغوي، ينحصر في رصد الظاهرة، يقف عندها متقريا واصفا ومستنبطا الميكانزمات الثاوية وراءها يقول عبدالحق فاضل: «. . . المهم أن هاته اللغات الثلاث ـ العربية، الأرامية والعبرانية ـ كُنَّ لغة واحدة ذات حين، ثم عملت عوامل الزمن وتنوع الأحوال الإجتماعية والحضارية والجوار عملها في تطويرها حتى توزعت لهجات، ثم أصبحت اللهجات لغات». ويقول: «ما من حدث اجتماعي أو نهضة علمية أو سياسية إلا ويصحبها تطور في اللغة. . في المباني أو في

www.dorat-ghawas.com

المعاني، أو في كليهما جميعا. أعني في إحداث ألفاظ جديدة لبعض المعاني، أو إحداث معان جديدة لبعض الألفاظ، أو في ذلك كله، وما من أحد على شيْ من الإلمام بتاريخ العرب وآدابهم، يجهل ما أحدث الإسلام مثلا؛ من ثورة لغوية إلى جانب الثورة الدينية والإجتماعية والفكرية وما أوجد من مصطلحات وغيّر من مفاهيم وتصرفات وكلمات».

ولابأس من الأشارة إلى عامل طريف من عوامل تطور اللغة، يجري على السنة الشعراء والمتأدبين بعامة، ذلك أنهم يعمدون إلى ابتداع بنى لغوية أو تأسيس مفاهيم دلالية، ولربما انحرافات تركيبية قد تستهوي بعض مُسْتَعْمِلي اللغة. إنها تزعج جيل الأباء الذين تكونت سليقتهم في خضم متن لغوي معين، هو مثلهم الأعلى يتشبثون به ولايبغون به بديلا. ويرون الخروج عنه مظهرا من مظاهر العقوق، في حين تصبح تلك البدع اللغوية متنالغويا معاصرا، يسهم في تكوين سليقة جيل جديد لايرى فيها شذوذاً، ولا تجد فيها ذائقته تصوراً ولا استكراها.

ثم ان التطورات التي تلحق اللغة مبنى ودلالة وتركيبا، لانجدها تنزل بالساحة اللغوية عن طريق الطفرة، وبضربة لازب، فتبدل أحوالها بين عشية وضحاها، بل نجد أثار ذلك التحول تسري سريانا لايدرك مداه الا بعد تصرم فترة زمانية معتبرة. فإذا تحدثنا اليوم عن المتن اللغوي المعاصر. فذلك لايعني ان جمهرة اللغة الحديثة والوسطى قد عفى عليها الزمان، ولم يترك لها الحدثان أثراً ولا رسما. فمما لاشك فيه أن ثمة وحدات لغوية قديمة، ترجع إلى ماضٍ سحيق، قد تكيفت مع الثروة اللغوية المعاصرة وجارتها وواكبتها، بينما تكون وحدات أخرى في طريق التولي والضمور، حسب قوانين لغوية معقدة، من بينها إقبال المتكلمين عليها واستهلاكهم لها، أو إعراضهم عنها، ومجافاة سليقتهم لها. والخطاطة التالية تقرب ذلك. الرواسب اللغوية التركيبية «زوائد متخلفة من عهد تطوري كانت لها فيه وظيفة، ثم تقلبت الأحوال، ففقدت وظيفتها أو اعتاضت عنها بغيرها وأشهر نموذج لهذا ما الزائدة بعد «إذا» وهي تكون زائدة كذلك عند وقوعها بعد الفاظ أخرى، فلا تغير شيئاً من معانيها، ولو انها تغير حكم بعضها في الإعراب، فهي تكف بعضها عن الإعراب «كيما» وتحرض بعضها على العمل مثل «حيث» التي تصبح بدخول ما جازمة.

ومن نماذج ذلك في مجال التركيب اجتماع الفاعل المضمر إلى جانب الاسم الظاهر، في لغة «أكلوني البراغيث». وأحيل إلى ماقدمته من حديث عن تقديم الصفة على الموصوف في العربية الحديثة، وتراجع الفارسية عنها والأخذ بالقاعدة العربية الأصيلة.

ومن قضايا هذا العلم العلاقة بين عملية التصويب اللغوي، والصورة الكتابية التي تمثلها.

فبما ان كل لفظة من الفاظ اللغات الإنسانية تتجسد في ثلاث مستويات.

١ ـ فهي أصوات يلفظها المتكلم وتلتقطها اذن المستمع.

٢ ـ إنها تحمل شحنة من المعاني في كل من المرسل والمتلقي على دراية بها.

٣ ـ تكتب أو تطبع، وتكون العلاقة بين الرسم والتصويب متناسبة، حيث تكون الكتابة مستأمنة على طريقة التصويب. بيد ان علماء الرسم ـ الخط ـ يعمدون أحيانا إلى زيادة حرف في كلمة مّا ليكون بمثابة القيمة المميزة لها عن كلمة أخرى، كما في لفظة مائة كتبوها بالألف تمييزا لها عن منه. وبتراخي الزمن نرى المكتوب يؤثر على عملية التلفظ، فنجد اليوم معظم العرب يقولون ماءة بمعنى مئة لانهم يكتبونها مائة. وأحيانا يقع العكس يتطور النطق وتبقى الكلمة المكتوبة محافظة على تمثيلها للتصويت القديم كما في كلمة Chapeau الفرنسية.

تلكم بعض ملامح هذا العلم الذي يعتبر عبدالحق فاضل، مصوراً لشقه الترسيمي. فما هي أوجه الإستفادة منه؟.

يعتبر العمل المعجمي من أصلح الميادين لتوضيف علم التأثيل والترسيمي. ومعلوم أن القدامى ـ قد قاموا بعمل جبار في صناعة المعاجم، حيث جمعوا المتن اللغوي على سعته وجردوا كلماته، وبينوا معانيها، وأتوا من النظريات بالمستطرف المفيد، الذي لم يتفطن له معجميو الغرب إلا مؤخرا، ولو كتب لهذه الحركة العمر المديد والرخاء المطرد لوصلتنا أعمال في قمة النضج؛ ولكنها الدورة التاريخية التي أوقفت ذلك المد الحضاري، وأتت على مستلزمات البحث. وها نحن اليوم

www.dorat-ghawas.com

بحاجة إلى متابعة المسيرة، ووصل أعمال السلف بإبداعات الخلق؛ التي عليها أن تغطي الثغرة التي تشكو منها معاجمنا التي تزخر بآلاف الكلمات، لأغلبها دلالات متعددة لكنها غير مرتبة ترتيبا زمانيا، يرينا أيها قديم؟ وأيها حديث؟ وأيها استحدث من الآخر، وكيف استحدث هذا من ذاك. اقتحم عبدالحق فاضل هذه العقبة، فقدم أثناء بحوثه التأثيلية لوائح نموذجية لألفاظ عربية، رتبها ترتيبا زمانيا؛ من النشأة الأولى، وبرهن على كيفية هذا النشوء، وسبل التطور، مهتديا في ذلك بالاستنباط ومستعينا بقرائن الحال.

فلك ان تستمتع بتأثيله لكلمة جمال، إن كنت أديبا، وتأصيله لكلمتي التنبؤ والتكهن إن كنت متكلما، ومن النماذج التي أسوقها مقتضبة تأثيله لكلمة رُمَّة: «الرمة: وزان الأُمَّة. يقال أخذ الشيْ برمته، وقرأ الكتاب برمته أي بأجمعه. والرمة هي القطعة من الحبل البالي. وأحسب أن أهل المعنى، كان قولهم «أخذ الدَّابة برمتها» أو باعها برمتها أي مع حبلها الذي كانت مربوطة به. وواضح أن المقصود ذم الدابة والزراية بها، لأن الحبل البالي لاتربط به كرائم الدواب. وصرنا نقول اليوم: وافق أعضاء اللجنة على الإقتراح برمتهم. دون أن نقصد، أنهم مربوطون بحبل بال أو جديد، أو يخطر لنا أن للأمر علاقة بالحبال أو الدواب أهلاً».

الجانب الثاني من وجوه فعالية هذا العلم ـ التأثيل والترسيس ـ هو استثماره للجانب السابق ـ المعجم التاريخي ـ واستفادته منه. حيث يصبح هذا المعجم مصدراً للمؤرخ والإجتماعي، ينضاف إلى جملة أمتعتهم، لاسيما إذا أعوزتهم الوثائق المادية واللّقى الأثرية، فلا محيط له حينئذ من استنطاق هذه الرموز اللغوية التي تولدت في ظروف وملابسات اجتماعية، وأحالت على أشياء العالم الخارجي، أو عوالم الفكر ونزعات النفس الإنسانية، وبما أن اللغة أداة تداولها الإنسان واستهلكها بالتواصل فما من شك أنه يستر عليها أماراته، أو كما يقول تشارلوك هولز يخلف عليها: «آثاراً من طباعه وأخلاقه وسيرته، وبالإمكان التعرف على الكثير من ذلك بمجرد فحص تلك الأداة» وبحسبك الرجوع إلى أبحاثه، آثار حيوانية في اللغة، وتأثير الأعاجم في لغة الأعارب، وفينيقيا ما أصل تسميتها؟ وتاريخهم من لغتهم، وأربطة البهائم في لغتنا الثقافية لتعلم الوجه الآخر من أوجه الوثيقة المعجمية ذات البعد الحدثي، فتعلم ان العقل والكتابة والتقييد والشكل والوثائق والعنوان والحكمة والعقد. والربط والعدالة والفضيلة وغيرها، يبتدئ تاريخ ميلادها بمعاشرة تلك المخلوقات البهيمية للانسان الذي ساسها واستانسها في طور من اطوار حياته البدائية.

ثم أن إجرائية التأثيل والترسيس، لاتقف عند حد البنى المعجمية ودلالتها، وإنما تتجوزها إلى حظيرة الدراسة النحوية حيث تشتهر بعض التراكيب، وتغيب أخرى، ويتفتت البعض الآخر. وملامسة هذا الجانب، أفضى بالأستاذ عبدالحق فاضل الى الادلاء برأيه في مجال إصلاح الدرس النحوي الذي يعتبره اداة مساعدة في إستضمار السليقة العربية، التي تغذيها البيئة اللغوية، ويزكيها المراس. ويذهب الأستاذ إلى أن الدرس النحوي بطرقه التقليدية، قد أخفق في تحقيق ما علق عليه من آمال يقول: (وهؤلاء اربعة أخماس حملة الدكتوراه والليسانس من خريجي الجامعات العربية على الأقل، لايذكرون قواعد، ولا يمتلكون القدرة على الإفصاح عن حاجاتهم، وهمومهم بكلام عربي مبين، ومرد ذلك ـ في نظر الأستاذ ـ إلى عسر القواعد، وانبنائها على مقاييس منطقية هارمة. زد على ذلك ما تحتويه أبوابه من تقسيمات وتقسيم التقسيمات، وطبعا فإن العلم إذا وصل إلى هذه الدرجة من التعقيد فمعنى ذلك أنه وصل الى نهاية مطافه.

وأنجح طريقة لدراسة هذه المادة بالنسبة لغير المتخصص، هي الوقوف عند حدود النظريات العامة أو ما يسميه عبدالحق فاضل بالطريقة الإجمالية، ومن أمثلتها «الاسم المعرب، يكون مرفوعا في جميع الحالات الأساسية أي حين يكون عماد الجملة أو خبرا له، إلا اذا نصبته «إن» «أو إحدى اخواتها. والذي نعنيه هو ان «إن» تنصب الاسم ولاترفع الخبر، لأن الخبر مرفوع أصلا. أما كان وأخواتها فلا ترفع ولاتنصب، وانما هي كبقية الأفعال لها فاعل، وكونها أفعالا ناقصة لايغير من الأمر شيئاً. فاذا قلنا أصبح الجو بارداً، كان الجو فاعلا لفعل أصبح، وأما بارداً فقد نصب لتمييزه عن الفاعل وحسب».

www.dorat-ghawas.com

ولا يزج بالمتعلم في زخم القواعد، إلا اذا كان من طلبة التخصص في اللغة والادب، لانه لايعقل أن يكون متخصصا، وهو خالي الوطاب من المتاع التركيبي، الذي يقرأ به، ويعتمده في وصف الظواهر اللغوية.

تلكم نظرة عامة عن بعض معطيات النظرية اللغوية عند استاذنا المحتفى به عبدالحق فاضل، التي استفادت - ولا شك - من أعمال رواد النهضة اللغوية الحديثة ونظمتها وطورتها، إن رؤياه تتأصل وتتجذر في أعمال شهاب الدين أبي الثناء محمود ابن عبدالله الألوسي (١١١٧ هـ - ١٢٧٠هـ) صاحب «كشف الطرة على الغرة» و منجزات الاب أنستاس ماري الكرملي صاحب مجلة «لغة العرب» و «دار السلام» وكتابات معروف الرصافي صاحب «دفع الهجنة عن ارتضاخ اللكنة»، والاستاذ ابي قيس عزالدين علم الدين التنوخي - مترجم الألواح التشريحية مما استجلب من اوربا.

حضرة استاذنا الجليل، لقد كتبتم المغامرات، وخرجت من أيديكم إلى المتلقين، فهل يحق لهم أن يغامروا بتأويل المغامرات.

الهوامش

(١) ففي اينها الكلمات، انيس منصور، الأخبار القاهرية، بتاريخ ٢٦-١٠-١٩٧٤، ع ١٥٦٤

(٢) المغامرات ص: ٩.

(٣) أعلن هذا العلم عن إفلاسه عند الغربيين لأن «لغاتهم على رقيها غير أصيلة، بل كلها خليط دخيل وليس بينها واحدة نشأت في مكانها وتطورت تطورا طبيعيا على ألسنة أهلها» المغامرات ص: ١٦٩-١٧٠.

(٤) الشائع ان اللغة الدرامية قيست اسمها هذا من اسم آرام خامس ابناء سام بن نوح. ولست اعرف في الحق ما سبب أخذهم بهذا الرأي، فان التاريخ لايثبت ان للآراميين صلة خاصة بآرام بن نوح اقوى من صلة سواهم به» ص ٩.

(٥) مثل آراء E.Renan المغرضة. لقد حمله بغضه الشديد للشرقيين بعامة. إلى رمي الساميين بالضعف والفشل في كل شئ، وضمور الخيال الخلاق عندهم انظر كتابه «Histoire des Langues s'emitiques».

(٦) المغامرات ص: ٢٠٤.

(٧) Vie et mort de mots. Maurice schrone. que sais —je? No 270.

(٨) اللغويون هنا على فريقين، فريق يذهب إلى ان الكلم وضعت في أول أمرها على هجاء واحد، متحرك فساكن، محاكاة للاصوات الطبيعية، ثم نُقِّبت أي زيد فيها حرف أو أكثر في الصدر او القلب أو الطرف. وفريق يرى أنها وضعت في أول نشوئها من ثلاثة أحرف. ثم جرى عليها المتكلمون.

(٩) مغامرات لغوية ص: ٢٠٦.

(١٠) انظر مقالا للدكتور ابراهيم السامرائي في مجلة سومر مجلد ١٤ السنة ١٩٥٨.

(١١) يقول الاب انستاس الكرملي: قد وجد نحن ان الابدال قد يتسع في جميع حروف الهجاء بلا شاذ. وقد وضعنا كتابا فيه، وهو الان بيدنا وهو غير مطبوع سميناه «جمهرة اللغات» ومُثْل ذلك السؤال، والوَعْل، . . القرا: القرع. . أوْقه فتاوق بمعنى عَوْقَهُ فَتَعَوَّقَ. . المأصُ والمَفصُ بيض الابل، نشوه اللغة العربية ونموها واكتهالها. ط ١٩٣٨ ص١٨.

(١٢) المغامرات ص: ١٠٣.

* * *

www.dorat-ghawas.com